كان لدي ستة عشر دينارا . ص : ٩ » . تبدأ الرواية بهذه الجملة ، وبعد حين تنتقل الـ « ستة عشر ديناراً » إلى فضاء « الدبلوماسيين ورجال النفط والوزراء وكبار الموظفين » تدخل عتبة الاندماج وتسلك الطريق الذي يلغي البداية ، ولكي يكون الدخول متكاملا يصل « البطل » إلى سلافة التي ترمز إلى صفوة القوم وأجنحة النظام الملكي : « لقد رأيت الفقيرات يفضن زرافات من أحيائهن الشعثاء ويجلسن على الأرض وأكوام الروث . أما أمثال سلافة فلربما تجمعن في حدائق بيوتهن لسماع الراديو أو ربما لعزف اسطوانات التانغو والباسو دوبلي القادمة من أمريكا اللاتينية . ص ٢٠٤ » .

تقدم الايدولوجيا الارادوية التي تحايث الرواية مسار « جميل » كتتويج لانتصار « روح الذات المقدسة » لكن القراءة النصية تهتك قناع أو اقنعة الوهم الايدولوجي وتنقل البطل إلى مستوى آخر . إن « جميل فران » هو نموذج الفردية الانتهازية المتزلفة التي تتاجر بثقافتها وتقدم الخدمات وتتوسل الاغتراب الارستقراطية وتلغي دلالة الوطن . بل يمكن أن نقول إن القيمة الفنية لشخصية « جميل » تكمن في قدرتها على رسم الوهم الفردي والتبرير الذاتي واغتصاب المعايير الذاتية البحتة لمقام القيم الموضوعية وعلاقاتها بالواقع وحركته .

يقول مقال الراوية ما لا يقوله الراوي ، تشي علاقات النص بفكر المؤلف فتتلاشى النوايا الصادقة ويبقى الأثر الأيدولوجي الذي يسخر في تحدده المادي من فلسطينية « جميل فران » ويشير إلى الوضع الأيدولوجي للراوي . إن الوضع الأيدولوجي للراوي لا يحدد فقط فكر شخصياته (مضمون النص) بل ينعكس بالضرورة في التسجيل الفني لهذه الشخصيات . يرسم موقع هذه الشخصيات في الراوية والواقع ويحدد موضوعيتها ووظيفتها الروائية . وعلى هذا فـان شخصية « جميل فران » لا ترسم علاقة اللاجيء بأرضه ، ولا حنينه إلى القدس « ذات التربة الحمراء » بل ترسم فردية فقدت تميزها الوطني واندمجت في وسط اجتماعي يدخلها إلى عالم « الحياة اللذيذة » . كذلك فـان الشخصيات الأخرى (عدنان وجسين وبرايان وتوفيق ...) لا تأخذ دورها إلا كصدى للبطل أو كمرآة يرى فيها ذاته ويحاور هذه الذات . فـ« عدنان » مثلا شخصية ضرورية لابراز ظل البطل ودوره كمنقذ ، خاصة إذا عرفنا أن عدنان هو ابن عم سلافة ، وكان عاشقا لها ، وتوفيق بدوره ابن عائلة غنية وذات سطوة يود الزواج بـ« سلافة » أيضا . وهذا يعني أن جميل قد هزم هاتين العلاقتين الاجتماعيتين ومهد طريق الدخول الكامل إلى المجتمع الجديد ، لكن هذه الهزيمة لا تنتج العداء بل تتم في إطار الحوار والمصالحة ، وهنا تظهر من جديد السمة النبوية لـ« جميل فران » .

أما « برايان » الانجليزي المولع بسحر الشرق فهو ضرورة للبطل كي يقيم معه الحوار والتواصل الفكري والثقافي ، فبين « برايان » و « جميل » علاقات تداخل وتشابه في المفاهيم وتصور العالم ، يرى كل منهما امتداده في الآخر ، فيتحاوران ويحاوران مجتمعا غريبا لا يثير فيهما إلا الغرابة والاندهاش والتعالي والاحتقار والتعاطف الاخلاقي . ثقافة تحاور أخرى وتطردها كنقيض ينتمي إلى زمن آخر . تعبر الرؤيا الاستشرافية التي يحملها جميل / برايان عن ذاتها في الطريق التي ترى بها المجتمع وتلتقط تفاصيله :